

التفسير المختصر - سورة ابراهيم (١٤) - الدرس (٢-٧) : تفسير الآية ٢٢ وقال الشيطان لما قضي الأمر .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٥-١-٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علما، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، واجعلنا من يسْتَمِعُونَ القول فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ وَأَدْخِلُنَا بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ.

أيها الإخوة المؤمنون، الإنسان يميل إلى أن يحمل أخطاءه للآخرين فالإنسان يحتاج أن البيئة سليمة، والمُجتمع فاسد، والشيطان وسوس وزوجته ضغطت عليه ! فحينما يتبرأ من ذنبه، ويُلقي التبعة على الآخرين، يكون قد ضلل ضلالاً بعيداً، فربنا عز وجل في الآية الثانية والعشرين من سورة إبراهيم يحدثنا عن الشيطان، وكيف أن هذا الشيطان ليس له علىبني آدم سلطان، أما أن يقول الإنسان: لعن الله الشيطان، والله يخزيه فهو الذي وسوس لي، ودفعني إلى هذا العمل هذا كلام لا معنى له إطلاقاً.

يقول الله عز وجل:

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾

[سورة إبراهيم]

أي أن الله جل جلاله حكم بين الخلاق ؛ فريق إلى الجنة، وفريق إلى السعير، ففي الدنيا هناك تصنیف کثيرة ؛ أغنياء وفقراء، أقویاء وضعفاء، وأصحاب مرضى، من الشرق الذي يؤمن بالجماعة، وبالغرب الذي يؤمن بالفردية، وهذا أصله سامي، وذاك أمي، وبهض وسود وطبقة كادحة وطبقة وسطي وطبقة أستقراطية ؛ هذه التصنیفات تنتهي في النهاية إلى صنفين مؤمن وكافر، ومتصل ومنقطع، محسن ومسيء وصادق وكاذب، ووفى وخائن، رحيم وقاس، فالمؤمن مصدق بربه ومترعرف إلى منهج ربّه، ومتصرف ومنضبط، ورحيم ومحسن ومتصرف، أما الكافر فمكذب ومقطوع ومختلف ومسيء ؛ فريق إلى الجنة وفريق إلى السعير، فحين يقضى الأمر ويُساق كل الناس إلى مصيرهم الأبدى، ما معنى أبداً! قد نقولها ولا نعرف معناها ! معنى الانهاية لو تصوّرت أكبر رقم وقسمته على ما نهاية تكون النتيجة صفر، ما معنى خالدين فيها أبداً؟ معنى ذلك لو أنّ الإنسان عاش سنة أو مائتان أو ألف سنة و مليون سنة، و ملبار ملبار... حتى ينقطع النفس لو قسّت هذا بالأخرّة ؛ فما عاش شيئاً ! لذا الإنسان لما يكفر بالله عز وجل أتدرؤن ماذا خسر؟ خسر الأبد، وهذه هي الخسارة الأبدية قال تعالى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَاتُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٢١)

[سورة هود]

قد يحرق محلَّ فيقول الناس: هذه خسارة ! لا، هذه ليست خسارة، فقد يكون هذا سبب الهدى، فالخسارة قد تكون سبب الهدى في الدنيا، أما الخسارة الحقيقة أن تخسر الأبد، قال تعالى:

﴿فَقُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٣)

[سورة الكهف]

لذا يقول الإمام علي رضي الله عنه: الغنى والفقير بعد العرض على الله فالغنى أن تدخل الجنة، والفقير أن تحرم منها، والغنى غنى العمل الصالح، والفقير فقرك من الأعمال الصالحة، ألم يقل سيدنا موسى حينما سقى بناتي سيدنا شعيب:

﴿رَبِّ إِنِّي لَمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقَرِيرٌ﴾

لماذا هو فقير ؟ للأموال الطائلة والأجنبية وغير المنقوله للعقارات... فالعمل الصالح هو الشيء الرابع يوم القيمة.

ربنا عز وجل يقول:

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾

[سورة إبراهيم]

قال تعالى:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلُمْ اقْرَءُوا كِتَابِي (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقِ حِسَابِي (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَّةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَّةٌ (٢٣) كُلُّوا وَاشْرُبُوا هَنِئُوا بِمَا أَسْفَقْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَّةِ (٢٤)﴾

[سورة الحاقة]

ظنَّ هنا بمعنى أَيْقَنَ، وحينما كنتُ في الدنيا علمتُ أنَّ هناك يوم آخر وهناك جنة إلى الأبد ونار إلى الأبد، قال تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشَمَائِلِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتْ كِتَابِي (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِي (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَّةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِي مَالِي (٢٨) هَلَّكَ عَنِي سُلْطَانِي (٢٩) خُذُوهُ فَقْلُوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْكُنُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحْضُّ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِنِينَ (٣٤)﴾

[سورة الحاقة]

هذا اليوم المُخيف، والذي إن غفل عنه الإنسان فهو أحمق، هو يوم الحساب والديون والجزاء، أعملوا ما شئتم فكل شيء مكتوب، قال تعالى:

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَاتَلُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١)﴾

[سورة آل عمران]

ردَّ عليهم الله وقال:

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾

فإن الإنسان إذا أيقن أن كلّ ما فعله مسجّل شيء مخيف، ففي أوروبا يضعون جهاز تصوير لمن يخالف قوانين السيّر ويعمل ليل نهار، فإذا الواحد أيقن أنه هذا الشارع مُراقب بالرادار لن يسرع، فالإنسان إذا أيقن أن الله تعالى رقيب عليه انتهى الأمر.

قال تعالى:

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾

[سورة إبراهيم]

صَحِّكْتُ عَلَيْكُمْ قَالَ تَعَالَى:

﴿إِنَّمَا ذَكَرْتُ الشَّيْطَانَ يُخَوِّفُ أُولَئِكَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)﴾

[سورة آل عمران]

فالشّيّطان يُخوّفُكَ ويَعْذِيكَ الفقر ، قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾

[سورة إبراهيم]

خالق الكون يؤكّد لك في ثمان آيات في كتابه، قال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩)﴾

[سورة سباء]

وعذك بالتعويض ووعذك بالنصر قال تعالى:

﴿وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩)﴾

(سورة آل عمران)

وقال تعالى:

﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِكُفَّارِنَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سِرِّاً (١٤١)﴾

[سورة النساء]

فالشّيّطان يُخوّفُكَ ويَعْذِيكَ الفقر .

قال تعالى:

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلَوْمُوا أَنفُسَكُمْ﴾

[سورة إبراهيم]

هذه الآية تكفي، وما وجّدت مثلاً يوضّح هذه الآية كالمثل التالي: إنسان يلبس بدلة أنيقة ثمنها ثمان مائة ألف، وإذا به يصطدم ببركة، فيذهب للشرطة يشتكي، فإن قيل له: من الذي دفعك؟ يقول لا أحد، وهل من أحد رماك هناك؟ فيقول: لا، فيقولون له: من إذا؟ فيقول: قال لي أحدهم دخل في هذه البركة !! بربكم ألا يعتبر هذا مجنوناً، قال تعالى:

﴿فَلَا تُلُومُنِي وَلَوْمُوا أَنفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾

[سورة إبراهيم]

لذا لا يقل الإنسان: لعن الله الشيطان فهو الذي أغواتني !! فالشيطان لا علاقة له ولا سلطان له عليك، وليس له أن يفعل بك شيئاً، لكنه يملك أن يوسع سلطانه، قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾

[سورة إبراهيم]

كلام خالق الكون، قال تعالى:

﴿إِنَّ عَبْدِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (٤٢)

[سورة الحجر]

أنت يكفي أن تقول: أعود بالله من الشيطان الرجيم وانتهى الأمر، قال تعالى:

﴿وَإِمَّا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٠٠)

[سورة الأعراف]

قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصَرُونَ﴾ (٢٠١)

(سورة الأعراف)

قال تعالى:

﴿فَلَا تُلُومُنِي وَلَوْمُوا أَنفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾

[سورة إبراهيم]

ملخص الآية أنَّ الإنسان مسؤول ولا يتوجهُ أنَّ هذا لا علاقة له فيها ؛ يقول لك: البيئة والمورثات، والضغوط والأشرة والمجتمع، لا تستطيع أن تدعى هذا الكلام لأنَّ حربَ، ومتى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ورزقَكَ حياتك بيدِ الله وحدهُ، وكلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرب أجالاً، ولما الإنسان يُحاجَّ عن طاعة الله من أجل إنسان قويٍّ فهذا فهم سقيم، والأمر كلَّ بيدِ الله، إله يدعوك لخلقِه ويقول لك: اعبدني فلو أوكلَ أمرَكَ إلى الخلق لما استحقَ العبادة، وما معنى لا إله إلا الله ؟ لا معبود بحقِّ إلا الله، ومن هو المعبود ؟ الذي يخلق ويميت، ويعطي ويمتنع، ويعزز ويذلّ، ويرفع ويخفض، بهذه الآية أساسية في موضوع الشيطان، فلا أحد يحتج بالشيطان، لأنَّ لا علاقة له، العنة وتعود منه ولكن لا تجعله السبب، فلو لم تكن هناك رغبة مماثلة لما فعلتَ ما أمرَكَ به.

والحمد لله رب العالمين